القرائن الحالية في الخطاب الحسيني

ـ دراسة وتحليل ـ

الأستاذ الدكتور

سامي الماضي

قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب

الجامعة المستنصرية

The current evidences in Al-Hussein's Sermons -study and analysis-

Pro. Dr. Sami al-Madhy
Arabic Department
College of Arts \ Al–Mustansiriya University

Abstract

In The Name of Allah, The Most Beneficent, The Most Merciful

All praise be to Allah and May His peace be upon his Messenger Muhammad, his family, and all those who followed them to the Day of Judgement.

The current evidences and the Maqam (the rhythmed style) are derived from the elements in the context. They are effective in the grammatical analysis(1). They work together with semantics to clear the whole meaning, clarify what is it meant, and identify unexpected meaning is not taken, specialize the general, and finally serves verifying the significance(2). Because al-Hussein's sermons during 'The Battle of Al-Taff' was not on the same monotony in the pattern and the meaning. It took a form that is in harmony with the patterns according to the Maqam used in the speech(3). For example, in his first sermon, when al-Hussein looked at the army of Omar ibn Sa'd and it was like the flood, he prayed and said, "O people! Allah, the most Exalted One, created life and made it a temporary abode, taking its people from one condition to another. Conceited is whoever gets fascinated by it, and miserable is whoever gets infatuated by it. So, do not let this life deceive you, for it shall disappoint whoever trusts and desires it!"(4).

His sermon is full with advice, reminding them with the Judgment Day, what life is, and finally the kinds of people like the conceited, the miserable, and the desireful. This sermon is characterized by advice and guidance. But in the second sermon it changed because the current and Maqam evidences became available in the two sides of the battle field. He was certain those people would never stop fighting him, taking his family as captives; therefore he used contextual references different from those in his first sermon. After he rode the horse and took a copy of the Quran which he spread over his head, he asked the people to listen to him saying, "Woe unto you, what make you don't listen to me, then here what I say? I call you to the righteous path and he who listens was among the righteous. He who disobeys was among the perished and you all are disobeyers and don't listen to me; your bodies are full of vices and your hearts are full with evil. Shame on you, don't you listen? Don't you hear?" (5). The evidence the Imam found was '…don't listen what I say' that is, they closed their ears in order not to listen; the result was, they became disobeyers of their Imam's orders. The Imam started explaining the reasons of their disobedience like vices what blinded their eyes to see the righteous path.

That is why I chose the second sermon for my research, my way in the analysis is to divide the sermon into parts and then analyzing each part according to the tools available. I pray for God's blessing and the Imam's as well although I admit "And in no way I acquit myself. Surely the self indeed constantly commands to odious (deeds), except that on which my Lord had mercy." 12:53

(1) Al-Khitab a-Husseiny fi Ma'rakat a;-Taff (Al-Hussein's sermons in the Battle of al-Taff) p. 141-142.
(2) Athar al-Qara'in fi al-Tawjeeh al-Nahwi (The influence of evidences in the grammatical analysis) p.11-12.
(3) Al-Khitab a-Husseiny fi Ma'rakat a;-Taff p.25.
(4) Imam al-Hussein; Seira wa Maqtal (Imam al-Hussein; biography and martyrdom) p.12.
(5) Ibid p.22.

القرائن الحالية في الخطاب الحسيني
دراسة وتحليل

الأستاذ الدكتور
سامي الماضي
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

المستخلص

إن القرائن الحالية أو المقامية تستنبط من العوامل المحيطة بالنص اللغوي، وهي ذات أثر كبير في التحليل النحوي، فمن خلال تضافرها مع القرائن اللفظية والمعنوية ترشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتفيد المطلق وتنوع الدلالة[1] لأنَّ الخطاب الحسيني في معركة الطف لم يكن على وتيرة واحدة في تراكيبه ودلالته، إنّما اتخذ منحى ينسجم مع التراكيب بحسب ما يقتضيه المقام الذي يقال فيه الخطاب[2] وعلى سبيل التمثيل في خطبته الأولى عندما نظر إلى جمع عمر بن سعد كأنّه السيلُ، رفع يديه بالدعاء وخطب فيهم قائلاً:

﴿أيّها الناس إنّ الله تعالى خَلق الدنيا فجعلها دارَ فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حالٍ، فالمغرور من غَرَّتْهُ، والشقيُّ من فتنتهُ، فلا تغرَّنكُم هذه الدنيا، فإنَّها تقطعُ رجاء من ركن إليها وتُخيِّبُ طمعَ من طَمِعَ فيها﴾[3]

فخطابه هنا فيه موعظةٌ كاملة وتذكرة بالآخرة ووصف للدنيا بأنّها زائلة والناس أصناف منهم المغرور والشقي والطامع، وهكذا يتجه الخطاب بالنصح والإرشاد. ولكن في الخطبة الثانية اختلف الخطاب عما كان عليه ولعل ذلك ناتج من توافر القرائن الحالية أو المقامية في طرفي المعسكر، لأنَّ الإمام عليه السلام كان على بصيرة من أمره فهو يعلم أنّ القوم لامناص لهم عن قتاله وسبي عائلته لذلك استعمل وسائل من الخطاب لها دلالات وإشارات غير الأولى وهذا بيِّن في خطبته الثانية. فبعد أن ركب الإمام عليه السلام

فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه وخرج إلى الناس فطلب منهم أن ينصتوا إليه فأبوا ذلك حتى قال لهم: ﴿**ويلكم ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا قولي؟ و أنا أدعوكم إلى سبيل الرشاد فمن أطاعني كان من المرُشَدِين، ومن عصاني كان من المهلكين وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمع قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام وطُبع على قلوبكم. ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون**﴾[٤]، فالقرينة الحالية التي استشفها الإمام عليه السلام من أحوال القوم وهي (غير مستمع قولي) أي إنّ القوم قد أصموا آذانهم بالامتناع عن الاستماع فكانت نتيجة ذلك عند الإمام عليه السلام أنهم كلهم عاصون لأمر إمامهم فأخذ يبين السبب وهو أنّ أكلهم للحرام أعمى قلوبهم عن الطريق الصحيح.

وعلى هذا اخترت الخطبة الثانية من خطب الإمام في واقعة الطف ومنهجي في التحليل اعتمد على تقسيمها على مقاطع ثم تحليلها على وفق أدوات الباحث.

فإن كان التوفيق فمن الله عز وجل وبركة الإمام الحسين عليه السلام وإنْ كانت الأخرى فمن نفسي إنّ النفس لإمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ

فمما لاشك فيه أنَّ الكلام قائم بين طرفين الأول المنشئ والثاني المتلقي أو المخاطب، ولابد للمنشئ من مراعاة أحوال المتلقي، والنظر إلى حيثيات اللغة أو وسائله اللغوية التي من خلالها يستطيع أنْ يفلح أو يخفق في إيصال المعنى المتبقي من النص _ أي الكلام المنشئ _ لذلك يجب على المنشئ أنْ يبين أموراً ويوضحها من الجوانب كلها فضلاً عن الإيفاء بشروط الموضوع المطروح، وهو أنْ يبرز كلّ ما يتعلق بالأمر من أجل إزالة اللبس في الكلام على المتلقي، وهذا لا يتأتى إلا من خلال مجموعة من الأنساق اللغوية التي يتمكن بها المنشئ، فهو يستطيع أنْ يوصل فكرته او الفشل في إيصالها، وعليه لابد من أنْ تتضافر له مجموعة قرائن فيما بينها ليتسنى للمتلقي فهم الكلام أو الفائدة منه، وهي التي يشترطها جلُّ النحويين في الكلام ومن دونه لا يكون كلاماً إذْ "إنّ المعنى النحوي يتجلى بدراسة العلاقة بين القاعدة النحوية ودلالة المفردة داخل التركيب وتضافرها مع السياق"[٥]، ولعل أبسط ما يقال عن خلل في هذه الشروط أنّهُ كلام خالٍ من المعاني، وهذا الأمر ما لا يبتغيه المنشئ.

والمنشئ هو الإمام الحسين عليه السلام الإمام المعصوم، فضلاً عن كونه وارث علم الأنبياء[٦]، وابن سيد البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام، لذلك كان يراعي كلّ صغيرة وكبيرة في خطابه فهو يجمل حين يكون الإجمال ويفصّل حيث يكون ذلك، ويستعمل القرائن اللغوية، وغير اللغوية؛ لأنَّ خطابه كانت له أبعاد تمثلت بالبعد التوحيدي، والحماسي، والرفض، والأخلاقي، والوعظي، والإرشادي، والتذكيري، والاجتماعي[٧].

توطئة

القرينة في اللغة: فعيلة بمعنى مفعولة من الاقتران، وقد اقْتَرَنَ الشيئان وتقارنا[٨] وفيهما معنى شدّهُ وربطهُ وجمعه إلى قرينه أي صاحبه[٩].

وفي الاصطلاح يقول الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ): "أمرٌ يشيرُ إلى المطلوب"[١٠]، ولعل الإشارة في معنى الجرجاني تكمن في الجملة الفعلية (يشيرُ) والإشارة غالباً تكون الدليل، والدليل هو القرينة التي يستدل منها في العملية الخطابية إلى المعنى المنشود من النص اللغوي، ومن خلال المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي يمكن أن نستنتج علاقة رابطة بينهما وهي الربط؛ لأنَّ القرينة في الجملة تسهم في ربط أجزائها[١١] وإظهارها وحدة نصية متكاملة بعلاقات بين مكوناتها اللغوية ومن ثم تكون هذه المكونات نصاً موحداً متكاملاً لإظهار المعنى المنشود من لدن المتكلم.

ولعل من المفيد أنْ نشيرَ إلى أنَّ القرائن الحالية أصولها بدأت منذ أول مصنف في النحو ويمكن أن تكون قبل ذلك وهو الراجح، يقول سيبويه (ت١٨٠هـ): (إنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربيّ كأنّك قلت: ذلك عبد الله أو هذا عبد الله[١٢] وهنا القرينة الحالية، وهي صورة الشخص كانت مسوغاً لحذف المبتدأ وأنّك من خلالها عرفت الخبر[١٣].

والقرائن على أنواع منها المعنوية وتتمثل بالإسناد، والتعدية، والغائية، والمعية، والظرفية، والتقوية، والملابسة، والتفسير، والإخراج، والخلاف، والنسبة، والتبعية.

وأخرى تسمى قرائن لفظية وتتمثل بـ(العلامة الإعرابية، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام، والأداة، والتنغيم[١٤].

وهذه القرائن المعنوية واللفظية مستنبطة من النص، وأما القرائن الحالية أو المقامية كما يسميها قسم من النحويين، فهي مستنبطة من خارج النص اللغوي، وهي موضوع بحثنا، وهذا النوع من القرائن ذو أثر كبير في التحليل اللغوي على مستوياته الأربعة، لأنّه من خلال تضافرها مع القرائن الأخرى، فهي تُرشِدُ إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد... وهي من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهملها غلط في نظره، وغالط في مناظرته[١٥].

ولذلك أولاها علماء اللغة من القدامى والمحدثين عناية فائقة وأهمية كبرى[١٦].

* لما أراد أنْ يخطب الإمام الحسين عليه السلام خطبتهُ الثانية ركب فرسهُ، أخذ مصحفاً ونشرهُ على رأسه وخرج إلى الناس... ولعل نشر المصحف على رأسه هو من العادات والتقاليد التي أصبحت تشير بشكل واضح إلى أنّ المعركة بين المسلمين، فكان إذا وقع صراع بينهم يحملون المصاحف دلالة على كونهم من جانب واحد، فتعالوا نحتكم للكتاب ألسنا نحن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومهبط الوحي، والإشارة هنا إلى حديث الكساء المتفق عليه بين جمهور المسلمين. ومن جانب آخر توجد قرينة - كما أعتقد - تشير إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو ابن القرآن؛ لأنه نزل على جده محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضلاً عن كونه تذكرة إنْ كنتم مؤمنين فنحن أهل البيت القرآن الناطق، بل لعل الأمر أبعد من ذلك أراد أن يذكرهم بالمواطن (بالآيات) التي نزلت بحقهم في القرآن الكريم، ومن أبرزها آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران ٣/ ٦١) وكذلك آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب ٣٣/ ٣٣) وها هو القرآن بيننا نحتكم إليه إنْ كنتم مسلمين، فضلاً عن الإشارة ربما إلى مسألة التحكيم التي وقعت في صفين بين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان.

وهذه القرينة التفت إليها اللغويون والنحويون، ومن قُبيل ذلك ما ذكره ابن جني (ت٣٩٢ هـ): "ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة نحو قولك" إذا رأيت قادماً: خير مقدم، أي قدمت خير مقدم، فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب"[١٧]، وهذا الأمر كان بارزاً آنذاك، لأنّه في عصر الفصاحة، والمنشئ إمام معصوم لذلك كانت: "مراعاة أحوال المخاطب من كلّ جوانبه وهذه المراعاة تساعد على فهم النص من خلال تأدية المعنى الوظيفي"[١٨] مما يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام أسقط الحجج عن القوم الواحدة تلو الأخرى، فهو يستعمل كل القرائن اللغوية وغير اللغوية من أجل أنْ يعي هؤلاء القوم فعلتهم هذه، ولكن من دون جدوى فهم في كفرهم وطغيانهم قد عُمّوا وصمّوا وألبسهم الشيطان قبح عملهم.

* ثم خطب الإمام عليه السلام قائلاً: **﴿ويلكم ما عليكم أنْ تنصتوا لي فتسمعوا قولي؟ وأنا أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان**

من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين، وكُلّكم عاصٍ لأمري، غيرُ مستمع قولي، فقد مُلئت بطونكم من الحرام وطبعَ على قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون﴾[١٩].

فلما شاهد الإمام عليه السلام حال قوم ابن سعد لعنه الله من تجاهلم للمصحف الشريف وعدم سماع قوله وخطبته؟ أخذ منحى آخر في خطبته وهو استعمال ألفاظ تدل على التنبيه ولكن بشدة، فضلاً عن ما تدل عليه هذه الألفاظ في حال نطقها، فهي لا تستعمل في الكلام الاعتيادي، و إنما استعملها الإمام عليه السلام بعد مشاهدة أحوال المخاطبين، فوجد أنْ من الضروري استعمال خطاب يتناسب مع ثقافة المجتمع اللغوية المتمثل بقوم ابن سعد (لعنه الله) فنلحظ هذه الألفاظ: (ويلكم، ما عليكم، تنصتوا، تسمعوا، أدعوكم، عصاني، ملئت بطونكم، طبع على قلوبكم).

أنّ كلَّ هذه الألفاظ تدل مع قرينة الحال المشاهدة على شدة الأمر، وهي المنتجة من خلال المشاهدة في الموقف الكلامي[٢٠]، وما يحيط بالقوم وما يلابسهم من ظروف، فكانت دليلاً قاطعاً عند الإمام عليه السلام على عصيانهم وجهلهم بشدة الأمر الذي هم فيه؛ لأنَّ المشاهدة قد أغنته عن ذلك، لذلك تمثلت القرينة الحالية بأساليب الكلام في ضوء عناصر العملية الخطابية بين المتكلم والمخاطب والعلاقة التواصلية بينهما[٢١].

﴿فمن أطاعني كان من المُرشدين﴾ و**﴿من عصاني كان من المُهلكين﴾** فهنا نلحظ المقابلة بين الطاعة والعصيان، وبين الإرشاد والهلاك هي مشاهدة حال فيجب أنْ تحدد الآن بعد أن توافرت لديك القرينة، فإما أنْ تكون من المرشدين من خلال طاعة الإمام المعصوم أو تكون من المهلكين من خلال عصيان الإمام المعصوم، لأنّ الإنسان يختبر في ساعات الشدة، واليوم هو الفصل بين يزيد وأعوانه لعنهم الله وبين طريق الحق وإدراك الفتح مع الإمام الحسين عليه السلام وأنتم الآن تحاربون الله ورسوله عندما تحاربون أهل بيته.

وقبل هذا كان الإمام عليه السلام يهيئ لهم الاستعداد للاستماع إلى كلامه، إذ بدأ بقوله: **﴿ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا قولي﴾** أراد منهم قرينة حالية من أجل التواصل في العملية الخطابية بينه وبينهم انصتوا أيْ اصغوا إلى كلامي، وبعد ذلك أفهموا قولي من خلال الاستماع وكررها في نهاية العملية الخطابية التي أراد أنشاءها (ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟).

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم وقالوا: (انصتوا له) ثم خطب فيهم. وهذا يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام قد حقق هدفه المنشود من مراعاته للقرائن الحالية عند المخاطبين فضلاً عن العمق اللغوي الذي يمتلكه كيف لا ؟ وهو إمام الأمة المعصوم.

وبعد ذلك أي بعد ما سكتوا وبان حالهم من الاستصنات والإصغاء إلى الإمام حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله ثم قال عليه السلام ﴿**تباً لكم أيتّها الجماعة وتَرَحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً في إيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم؟ فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوهُ فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلا الحرام من الدنيا أنالكم، وخسس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منّا ولا رأي تفيل لنا...**﴾[٢٢].

إنّ الملاحظ هنا أنّ الإمام عليه السلام استعمل مجالات السياق الحالية من خلال التعبير عن أساليب الكلام بأنماطه المتنوعة وكذلك لأنّ اختلاف الأساليب وتباينها ما هو إلا من أجل الإبانة عن المعنى[٢٣] فضلاً عن أنَّ هذا التنوع نابع من تنوع الغايات المنشودة في الكلام والمعروف أنّ الإمام عليه السلام حاول جاهداً بكلّ ما يملك من وسائل وأساليب أن يوظفها لخدمة المعنى و إيضاحه حتى لا يبقى مشوشاً على الآخرين، لأن الموقف آنذاك كان يقال أنّ الإمام خارج على إمام عصره وهو ما كان مرسخاً عند الفئة الطاغية لذلك كانت الحاجة ضرورية لتنوع الأسلوب إذا ما علمنا أنّه أي –الأسلوب– هو الطريقة التي يمكن أنْ تؤثر في هؤلاء القوم على اعتبار أنّ الكفر والضلالة قد طبع على قلوبهم، وهذا الأمر شائع عند العرب، فقد دعت الحاجة إلى أنْ ينوع المتكلم الجمل تبعاً لتنوع دواعي الكلام، ولذلك كان لكلّ داعٍ أسلوب معين يعبر عنه فللإثبات أسلوبه وللنفي أسلوبه، وللطلب أسلوب ثالث مغاير... فحاجة المتكلم تكمن في رغبته في إيصال المعاني والأفكار التي يعبر عنها بأساليب مختلفة[٢٤]، فلو لاحظنا عبارة (تباً لكم، وترحاً) لوجدناها ألفاظا يفرضها الحدث الكلامي عندما تكون قرائن حالية، تدل على انحراف المخاطب عن معاني المتكلم فضلاً عن كونها تولد أصواتاً مصاحبة للحدث الكلامي إذ في الغالب تكون بنبرة تختلف عن غيرها.

(أحين استصرختمونا والهين) فالصرخة فيها صوت يختلف عن الصوت الاعتيادي في المناداة بين المتلقي والمخاطب، وهذا يتناسب مع الوله وهو ذهاب العقل والتحير من شدة الوَجْد أي الأمر الذي أنتم فيه، وهذا التحير يستنبط من واقع الذين خاطبوه سواء بكتبهم أم بمرسوليهم، والعلاقة بين الصرخة والوله إنما بقرينة حالية مستنبطة من شدة الأمر الذي وقع فيهم وهو تولي يزيد (لعنةُ الله) الخلافة بعد أبيه.

(فأصرخناكم موجفين) أي استجبنا لصرختكم سيراً كسير الإبل والخيل، والقرينة الحالية هاهنا هي السرعة بين وقع الابل والخيل من خلال الصوت الذي تتركه أثناء العجلة في

المسير والعلاقة بين صوت الصرخة التي تكون بتفاوت من شخص إلى آخر بحسب شدة الأمر، وهذه إشارة من الإمام الحسين عليه السلام إلى شدة الأمر الذي هم فيه. (سللتم علينا سيفاً في إيمانكم) فالسيف عندما يُسلُّ من غمده لأمر صلب يخرج صوتا يشبه صوت الصرخة، وهي قرينة حالية وكذلك (وحششتهم علينا ناراً) لأنّ الإنسان عندما يحرث الزرع يترك منجله صوتاً آخر وكذلك (اقتدحناها على عدونا) فالقدح كذلك يترك صوتاً. فالقرينة الحالية هي الصوت الذي يتركه الأثر في العملية الخطابية بين المنشئ والمتلقي، وبعد ذلك يبدأ الإمام عليه السلام بتقرير أعمال قوم عمرو بن سعد لعنه الله، (كيف أصبحتم إلباً لازمين لأعدائكم) وهم في الأصل قوم عمرو بن سعد لعنه الله، على أوليائكم الذين طلبتموهم من خلال الرسل والكتب فضلاً عن تكليفكم الشرعي.

والقرينة الحالية هنا هي الشدة التي طلبتمونا بها الآن أصبحتم بشدتكم مع أعدائكم على أوليائكم.

(بغير عدلٍ أفشوه فيكم) لعلها إشارة إلى معاوية بن أبي سفيان الذي نقض عهده مع الإمام الحسن عليه السلام وجعل الخلافة بعهده شورى ولكنه أورثها إلى ابنه يزيد، والقرينة الحالية هي عدم وجود العدل الذي مرّ من قبل ولم نلمس شيئاً منه وبين الوعد الذي منحوكم إياه وأين هذا من ذاك؟

ولعل الإمام الحسين عليه السلام في خطابه يبدو واضحاً في مراعاته لحواس المخاطبين، لانّها معين نضب في إيصال الفكرة التي يراد إبلاغها، لأن السمع والبصر يغنيان عن ذكر قسم من الألفاظ التي لا حاجة من ذكرها مباشرة[٢٥] لذلك فإنَّ حال القوم آنذاك حال ترقب. وانتظار وتوجه إلى خطاب الإمام الحسين عليه السلام فضلاً عن رؤية العين والوجود داخل الحدث اللغوي، ومن خلال هذه القرائن استطاع الإمام عليه السلام أنْ يوظف خطابه وفقاً لمعطيات العملية الخطابية بين المنشئ والمتلقي، وهذا الأمر قد أثمر ميداناً -أي داخل الميدان- فلولا الخطاب المؤثر لما توجه الحر بن يزيد الرياحي إلى الحسين مثلاً فضلاً عن الذين تركوا ساحة القتال.

ثم قال الإمام عليه السلام: ﴿**فَهَلاَّ لكُمُ الويلات؟! تركتمونا، والسيف مشيمُ والجأشُ طامنٌ، والرامي لما يُسْتصحف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدَّبَا، وتداعيتُم إليها كتهافت الفراش..**﴾[٢٦].

وهنا الإمام ربط بين القوم وبين المثل (كطيرة الدبا...) والقرينة بينهما هو الهروب قبل وقوع الحدث فالسيف مشيمُ أي مكبول، والجأش طامن أي مطمئن وكذلك الرأي، ولكن أنتم قبل هذا وذاك كنتم كطيرة الدبا التي تهرب قبل وقوع الحدث[٢٧].

وبعد هذا الخطاب يبدأ الإمام عليه السلام بالحكم على أفعالهم، فعلى الرغم من العهد الذي كان بيننا أي بين المنشئ وهو الإمام الحسين وبين المخاطبين حول المواثيق التي أعطاها أهل الكوفة للإمام وهو من القرائن الحالية.

ثم بدأ الإمام عليه السلام يخصص الذين أعطوه المواثيق: ﴿**فسحقاً لكم ياعبيد الأمة، وشِذَاذَ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومُحرفي الكَلِم وعُصبة الآثام، ونَفَثَةَ الشيطان، ومُطْفئي السنن، وقتلةِ أولاد الأنبياء، ومُبيدي عترة الأوصياء، ومُلحقي العار بالنسب، ومُؤذي المؤمنين وصُراخ أئمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدَّمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون**﴾[٢٨]، والتخصيص هنا مرتبط بالمخاطب إذ إنّ المنشئ (الإمام عليه السلام) خصص القوم: قوم عمرو بن سعد لعنه الله بأسلوب النداء (يا عبيد الأمة) وعطف عليه أحد عشر تركيباً ندائياً من دون أنْ يذكر أداة النداء فحذفها اكتفاءً بالمنادى كما في قوله عزّ وجل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (يوسف ١٢/ ٢٩)، لأنّ المراد معلوم والحذف هنا لقوة الدلالة فضلاً عن قرينة الحال[٢٩] وهي قرب المخاطب ممن يناديه وقدرة المنشئ على التنبيه من غير أداة. ولما كان النداء طلب إقبال المخاطب على المتكلم وهو يحدث بأداة النداء والمنادى فضلاً عن ذلك فإنّ العملية الخطابية هنا تكون مبنية على علاقة وثيقة بين المتكلم والمخاطب، والأدوات المستعملة فيه تكون متباينة بين أحوال المخاطب، ولذلك كانت غايته تنحصر في التنبيه والتوكيد فضلاً عن الأسرار والخفايا الكامنة في نفس المنشئ[٣٠].

ومن القرائن الحالية في هذا الخطاب هي أسباب النزول والإشارة كانت متمثلة بقوله عزّ وجلّ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (المائدة ٥/ ٨٠) إشارة إلى سبب نزول الآية المباركة في يهود مكة (كعب بن الأشراف وأصحابه)؛ إذْ استجاشوا المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول الإمام الباقر عليه السلام يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم، وهو توبيخ وتنبيه لسوء فعالهم فبئس ما قدموا من العجل، وذكر ابن عباس ومجاهد أنّها في المنافقين من اليهود[٣١].

وكذلك إشارة إلى اليهود الذين نزلت من قبل عليهم التوراة فاقتسموا، جعلوا القرآن عضين أي فرقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور، فامنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فامنوا بما وافق دينهم وكفروا بما خالف دينهم[٣٢].

فالإمام عليه السلام أراد أنْ يوقفهم على المعنى الحقيقي من خلال قرينة النص القرآني المستشهد به في الخطاب، فضلاً عن دفع الفهم الخاطئ

الذي ممكن أنْ يكون تولد عند قسم منهم، وإشارة إلى تخصيص الخطاب إلى أحوالهم، أي بمعنى لا تكونوا كما كان اليهود والمنافقون، وقرينة أسباب النزول قرينة حالية برزت عند المفسرين واللغويين(٣٣).

وإن دلّ هذا إنّما يدل على أنّ الإمام الحسين عليه السلام لن يترك صغيرة ولا كبيرة إلا استثمرها في العملية الخطابية من أجل رفع التشويش، والتوهم الذي ربما أصاب القوم، وهذا الأمر قد أثر في الحر بن يزيد فأخذ يدنو من الإمام الحسين عليه السلام قليلاً قليلاً فقال له المهاجر بن أوس: (أتريد أنْ تحمل؟ فسكت الحر وأخذته الرعدة، فارتابَ المهاجرُ من هذا الحال، وقال له: إنّ أمرك لمريب... فقال الحر: إنّي أخيرُ نفسي بين الجنة والنار، والله لا اختارُ على الجنة شيئاً ولو أحرقت).

* ثم خطب فيهم الإمام عليه السلام ﴿**ويلكم! أهؤلاء تعضدون؟ وعنا تتخاذلون؟.. أجل والله غدرٌ فيكم قديمٌ وشجتْ عليه أحوالكم، وتأزّرتْ عليه فرُوعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيتْ صدوركم، فكنتم أخبث ثمر شجاً للناظر، وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الإيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً فأنتم والله هم!..**﴾(٣٤).

لقد أفاد الإمام عليه السلام من قرينة التنغيم للإشارة إلى القرينة الحالية، والمعروف أنّ التنغيم يعد عاملاً في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من إثباتية واستفهامية وغيرها، فضلاً عن ذلك فإن التنغيم يكون فيصلاً في الحكم على نوع الجملة وهو يقوم بعمل دلالي من خلاله يهتدي إلى فهم المعنى أو الجملة وفقاً لمستوياته(٣٥)، فقوله:(ويلكم) دلالة على التعجب، و(أهؤلاء تعضدون) دلالة على الاستفهام، ولنا تتخاذلون فيها استفهام وفيها إشارة إلى غدر أهل الكوفة مع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وما فعله الخوارج وكذلك مع الإمام الحسن عليهما السلام، ومن خلاله يبدأ الإمام بتصنيف وتفصيل أصولهم التي مازالوا عليها من حيث الغدر الذي أنتم فيه، فضلاً عن الإشارة إلى سبب نزول النص القرآني ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (النحل ١٦/ ٩١)؛ لأن الله عز وجل أمر بالوفاء بالعهد والوعد من العهد ذكره ابن عباس، وقال غيره من المفسرين إنّه نهي من الله سبحانه عن نكث الإيمان بعد عقدها وإبرامها وتوثيقها باسم الله، وسبب نزول النص إشارة أخرى من الإمام عليه السلام إلى القرينة الحالية إذ نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإسلام فقال سبحانه للمسلمين الذين بايعوه لا يحملنكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإنّ الله حافظكم(٣٦)، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً فأنتم والله هم! وإنّما الإنسان يؤكد الأمر

على نفسه بذكر اسم الله تعالى على جهة الإيمان ليحفظ سبحانه ذلك الأمر[٣٧]، وهي قرينة حالية، لأنّ الكفالة من اللهﷻ وليست من البشر. من كلّ هذا نلحظ أنّ القرينة الحالية كان لها سمة بارزة في عناصر الخطاب الحسيني، فضلاً عن مراعاتها بكلّ جوانبها من خارج النص اللغوي والاستعانة بوسائل متنوعة من أجل الإشارة لها.

الهوامش

١. ينظر: أثر القرائن في التوجيه النحوي ١١ -١٢.

٢. ينظر: الخطاب الحسيني في معركة الطف٢٥.

٣. الإمام الحسين سيرة ومقتل١٢.

٤. الإمام الحسين سيرة ومقتل ٢٢.

٥. الدلالة النحوية ٥.

٦. كما جاء في زيادة وارث.

٧.ينظر: الخطاب الحسيني في معركة الطف ١٤١-١٤٧.

٨. ينظر: اللسان العرب مادة قرن ١٣/ ٢١١.

٩. ينظر: العين ٥/ ١٤١، وجمهرة اللغة ٤٠٧.

١٠. التعريفات ١٧٥.

١١. ينظر: القرينة في اللغة العربية ٢٠.

١٢. الكتاب ٢/ ١٣٠.

١٣. ينظر" القرينة في اللغة العربية ٢٠، وأثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه٧.

١٤. اللغة العربية معناها ومبناها ١٩١.

١٥. ينظر، أثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه ١١-١٢.

١٦. من القدامى سيبويه في كتابه والمبرد في مقتضبه، وابن السراج في أصوله، ومن المحدثين د. تمام حسان في اللغة العربية معناها ومبناها، ود. محمد حماسة في (النحو والدلالة).ود. نهاد الموسى في (نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي)، ود.لطيف حاتم في (أثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه) ود.سامي الماضي في (الدلالة النحوية في كتاب المقتضي للمبرد) وغيرهم.

١٧. الخصائص ١/ ١٣٥.

١٨. الدلالة النحوية ١٦٣.

١٩. الإمام الحسين سيرة ومقتل٢٢.

٢٠. ينظر سياق الحال٨٤.

٢١. ينظر: سياق الحال٨٦.

٢٢. الإمام الحسين سيرة ومقتل ٢٢-٢٣.

٢٣. ينظر: التفكير البلاغي عند العرب٥٦٩.

٢٤. الأساليب الإنشائية في النحو١٣.

٢٥. ينظر: مراعاة أحوال المخاطب٦٣.

٢٦. الإمام الحسين سيرة ومقتل ٢٣.

٢٧. يعد الإمام أول من استعمل هذا المثل في اللغة بعد النبيﷺ.

٢٨. الإمام الحسين سيرة ومقتل ٢٣.

٢٩. ينظر: الدلالة النحوية١١٦.

٣٠. ينظر: مراعاة أحوال المخاطب ٢٤.

٣١. ينظر: مجمع البيان ٣/ ٨٣.

٣٢. ينظر: م. ن ٦/ ١٠٠.

٣٣. ينظر: أثر القرينة في توجيه المعنى عند الفراء ١١٩.

٣٤. الإمام الحسين سيرة ومقتل ٢٤.

مجلة علمية فصلية محكمة السبط

٣٥. ينظر: القرينة في اللغة العربية ٥٤ ـ ٥٥.

٣٦. ينظر: مجمع البيان ٦/ ١٤٨.

٣٧. ينظر: م. ن ٦/ ١٤٨.

المصادر والمراجع

١. أثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه / د. لطيف حاتم الزاملي، أطروحة دكتوراه، آداب المستنصرية ٢٠٠٣م.

٢. أثر القرينة في توجيه المعنى عند الفراء(ت٢٠٧هـ) في كتابه معاني القران / كاظم إبراهيم، رسالة ماجستير، كلية التربية / بابل ٢٠١١م.

٣. الأساليب الإنشائية في النحو العربي/ عبد السلام محمد هارون، مط١ السنة المحمدية ١٩٥٩م.

٤. الإمام الحسين سيرة ومقتل/ السيد هادي المدرسي، دار القارئ،ط١، بيروت ٢٠٠٢م.

٥. التعريفات/ الشريف الجرجاني(علي بن محمد ت٨١٦هـ) دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦م.

٦. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس / حمادي حمود، مط الرسمية، منشورات الجامعة التونسية، تونس١٩٨١م.

٧. جمهرة اللغة/ ابن دريد (محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ) مط مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، ط١٠، ١٣٤٥هـ.

٨. الخصائص/ ابن جني (عثمان بن جني ت٣٩٢هـ) تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية،ط٤، بغداد ١٩٩٠م.

٩. الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة لغوية وتحليل، د.عبد الكاظم محسن الياسري/ ط١، العراق ٢٠٠٩م.

١٠. الدلالة النحوية في كتاب المقتضب للمبرد محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ) د. سامي الماضي، مكتبة الثقافة الدينية،ط١، القاهرة ٢٠٠٩م.

١١. سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو الدلالة/ د. أسعد خلق العوادي، دار الحامد للنشر والتوزيع عمان ٢٠١٠م.

١٢. العين/ الفراهيدي (الخليل بن أحمد ت ١٧٥هـ) تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي دار الرشيد للنشر، بغداد١٩٨٠م.

١٣. القرينة في اللغة العربية / د. كوليزار كاكل عزيز، دار دجلة، ط١ الاردن٢٠٠٩م.

١٤. الكتاب/ سيبويه (عمرو بن عثمان ت ١٨٠هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي،ط٣، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٥. لسان العرب / ابن منظور (محمد بن مكرم ت ٧١١هـ) تحقيق عامر أحمد حيدر، ط٢، دار الكتب العلمية،لبنان٢٠٠٩م.

١٦. اللغة العربية معناها ومبناها / د.تمام حسان، دار الثقافة/ المغرب ١٩٩٤م.

١٧. مجمع البيان / الطبرسي (الفضل بن الحسن ت ٥٤٨هـ) الناشر مكتبة دار المجتبى، ط١، النجف الاشرف ٢٠٠٩م.

١٨. مراعاة أحوال المخاطب في النحو العربي / د. بان الخفاجي، ط١،دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٨م.